



جهاد الفقهاء المالكية، وأساليب مقاومتهم للدولة الشيعية العبيدية في المغرب العربي
Jihad of the Maliki scholars and their methods of resistance to the Shiites "Bani Ubaid" in the Arab Maghreb

علي الشريف بويجرة (*)

جامعة الزيتونة ، تونس

bachirtakwa@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2020/06/08 تاريخ القبول: 2020/11/17 تاريخ النشر: 2020/12/31

الملخص:

مرت أمة الإسلام عبر تاريخها بأزمات كثيرة، كان من أخطرها: فتنة شيعة بني عبيد الذين استولوا على المغرب العربي، وأسّسوا في تونس دولتهم سنة 297هـ. وقد انقسم الفقهاء المالكية باعتبار إنكارهم على العبيديين إلى (أ) فقهاء منكرين، وهم السواد الأعظم (ب) فقهاء غير منكرين، وهم قلة يسيرة. أما المنكرون فقد انقسموا إلى (1) منكر بقلبه (2) منكر بلسانه: وتمثل الانكار باللسان في المقاومة العلمية التي اتخذت أساليب عديدة (3) منكر بيده: وتمثل الانكار باليد في المقاومة المسلحة. وأما غير المنكرين؛ فانقسموا بدورهم إلى: (1) متعاطف مداهن، أو متلاين (2) موافق خائن بائع لدينه ووطنه بعرض من الدنيا قليل. وقد أثمر جهاد فقهاء المالكية الصامدين الصابرين انجلاء آل عبيد عن وطنهم.

الكلمات الدالة:

الفقهاء المالكية؛ العبيديون؛ الجهاد؛ القيروان؛ المذهب.

Abstract:

Throughout its history, the Nation of Islam has experienced many crises, one of which was the most dangerous: the sedition of Shiites " Bani Ubaid " Who took over the Maghreb and established their state in Tunisia in 297 Hijri. The Malik scholars disagreed, considering their denial of the Ubaidis to: Denier scholars, who represent the majority, and Proponent Jurists who represent the minority. For the denying scholars there are three deviations : 1- Heart denying. 2- Tongue denying (scientific resistance) : which has taken various forms. 3- Hand denying (the armed resistance). And for the proponent scholars they split in their turn into: 1-

(*) المؤلف المرسل: علي الشريف بويجرة bachirtakwa@gmail.com



Sympathetic supporters.2-Approved traitor.And the struggle of the patient standing
Maliki scholars had yielded its fruits in the eviction of Ubaidis from their land.

Keywords: Maliki schollars ; Ubaidis ; struggle ; Kairouan ; doctrine.

أولاً. المقدمة:

العلماء هم ورثة الأنبياء، ورثوا عنهم وظيفة الإصلاح؛ إصلاح الدين والدنيا، «وهم الوسائط بين الرسول وأمتهم فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملته دينه» (1). وأمة الإسلام «أكمل الأمم، وخير أمة أخرجت للناس، ونبيها خاتم النبيين لا نبي بعده، فجعل الله العلماء فيها كُلمًا هلكَ عالم خلفه عالم؛ لئلا تطمس معالم الدين وتُخفى أعلامه. وكان بنو إسرائيل كلما هلك نبي خلفه نبي، فكانت تسوسهم الأنبياء، والعلماء لهذه الأمة كالأنبياء في بني إسرائيل» (2). ودورهم في الأمة دور كبير؛ فهم صمام الأمان لدين الأمة وعقيدتها وبيضتها، وصلاح كل أمرها. وهم النجوم التي تزيل ظلمات الليالي الحالكة، والأمل الذي يحدو الناس عندما تلم بالأمة الخطوب والنوائب الهالكة؛ كما قيل: «مثل العلماء مثل النجوم التي يُهتدى بها، والأعلام التي يُقتدى بها، إذا تغيبت عنهم تحيروا، وإذا تركوها ضلُّوا».

ومن واجب العلماء عندما تصيب الأمة النوازل، ويستبد بنفوس أفرادها اليأس والكربات حال الفتن والمحن؛ أن يهبوا حتى تنحسر الغيوم، وتنقشع الهموم، وتسفر الأحزان. ومن واجب العلماء عندما يتداعى على الأمة الأعداء بعد التشتت والتردي والوهن، أن يبددوا سحب اليأس والقنوط، وأن يعلموا الناس أنّ إعادة المجد التليد، وكسر العدو الشديد أمر ممكن، ليس ببعيد المنال، وأنّ عودة المسلمين إلى ما كانوا عليه من الصدارة والريادة ليس بمحال.

ولقد مرت أمة الإسلام عبر تاريخها بأزمات كثيرة وفتن متلاحقة، كان من أخطرها، فتنة شيعة بني عبيد الذين أسسوا دولتهم الباطنية الشيعية في تونس سنة 297 هـ، وانتقلت إلى مصر سنة 362 هـ، واستقر بها المقام فيها، وامتد سلطانها إلى أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي. وبمجرد وصول عبيد الله الشيعي إلى القيروان أظهر تشيعه القبيح، وسب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأزواجه، ومنع الفقهاء أن يفتي أحدهم إلا بمذهب ادّعى أنه مذهب جعفر بن محمد،

وبرع في نشر البدع التي لا صلة لها بالإسلام، وإلزام الناس بها وكأنها من شرع الله. قال القاضي عياض: «كان أهل السنة بالقيروان أيام بني عبيد، في حالة شديدة من الاهتضام والتستر. كأنهم ذمة. تجري عليهم في كثرة الأيام محن شديدة. ولما أظهر بنو عبيد



أمرهم، ونصبوا حسيناً الأعشى السبّاب لعنه الله تعالى، في الأسواق، للسب بأسجاعٍ لُقّبها. يوصل منها الى سب النبي صلى الله عليه وسلم، في ألفاظ حفظها. كقوله لعنه الله: العنوا الغار وما وعى، والكساء وما حوى. وغير ذلك. وعلقت رؤوس الأكباش والجر، على أبواب الحوانيت، عليها قراطيس معلقة، مكتوب فيها أسماء الصحابة. اشتد الأمر على أهل السنة. فمن تكلم أو تحرك قتل، ومثّل به. وذلك في أيام الثالث من بني عبيد، وهو إسماعيل الملقب بالمنصور، لعنه الله تعالى، سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة» (3).

وبعد أن استقرّ الأمر للعبيديين في الشمال الإفريقي، وكشفوا عن مذهبيهم الضال، وملّهم العوجاء؛ فهل انبرى الفقهاء المالكية منافعهم عن عقيدتهم، مدافعين عن أرضهم، كما هو مطلوب من العلماء الصادقين؟ وهل كان فقهاء القيروان - حقاً - أشدّ من عانى من قساوتهم، وأكثر من باشر كيدهم وأديّتهم، حتّى قيل أنّهم كانوا رأس الحرية التي نجحت في تبديد شمل آل عبيد، وشق عصاهم، وأقول سعدهم؟ وما هي الأشكال التي جابه بها هؤلاء العلماء بني عبيد، وقاوموا بها دعوتهم وبدعتهم الرافضية؟

- ثانياً، موقف علماء المالكية من بني عبيد:

كان فقهاء المالكية أكثر من عالج بلاء وشقاء العبيديين، بمناهضتهم ومناوئتهم جهود تشييع منطقة المغرب العربي، بيد أنه وإن كان موقف الإنكار على الدولة العبيدية والدعوة إلى عقيدتها هو الغالب؛ إلا أننا لم نعدم من هؤلاء الفقهاء من لم ينكر على العبيديين؛ وكان لهم متعاطفاً مدهناً، أو موافقاً خائناً. ولهذا يمكن أن نصنّف الفقهاء المالكية باعتبار الإنكار على العبيديين إلى:

أ- فقهاء منكرين ومناهضين، وهم السواد الأعظم.

ب- فقهاء غير منكرين، وهم قلة يسيرة، وثلة صغيرة.

أ- أما المنكرون المناهضون فقد انقسموا بدورهم؛ بحسب ما رُكّب فيهم من غريزة الشجاعة، وخلق الإقدام، وثبات الجأش إلى:

(1) منكر بقلبه فقط، فاربدينه يبتغي السلامة لبدنه وأهله. ومنهم:

- أبو محمد يونس بن محمد الورداني [299هـ]: قال المالكي: «روى أبو القاسم الليبي عن شيوخه قالوا: كان يونس الورداني هذا مخمول الذكر؛ وذلك أنه لما دخل عبيد الله إفريقية واستولى عليها، طلب أهل الفضل والدين؛ فخاف على نفسه منه، فخير أهله بين أن يهرب من إفريقية فلا يرويه أبداً، أو يتركوه يرعى البقر؛ فاخترأوا له الثانية، فأقبل على رعاية البقر،



فكان إذا أصبح أخذ مصحفه فجعله في مخلاة، وتقلّد بها، وأخذ عصاه، وساق البقريين يديه، وأبعدها عن العمارة، وأقبل على قراءة القرآن النهار أجمع، فإذا أمسى واختلط الظلام أقبل بالبقر إلى منزله. فكان هذا أدبه حتى مات، وسلّمه الله تعالى من فتنة بني عبيد. قالوا فهذا الذي أخل ذكره رضي الله عنه» (4).

- عمر بن عبد الله بن يزيد الصدي [ت349هـ]: قال عياض «أبو حفص. قال المالكي: كان ممن طلب العلم، وتفقه، وسمع من أحمد بن أبي سليمان وغيره. ثم اعتزل الناس. ولزم العبادة والتبتل. وقيام الليل... قال أبو علي الورّاق: وكان أبو حفص من أهل العلم والورع، لا ينام إلا مغلوباً. لم يكن في وقته مثله. فلما دخل بنو عبيد فرّ. فسكن المندستير. ولم يتخذ فيها بيتاً، مدة، وإنما كان يدفع كساه. عند رجل من سكان القصر. ولما اشتهر أمره، كان إذا تكاثر الناس بالقصر في الموسم، خرج إلى سوسة. وكانت له بها زوجة. فيقيم بها. ويلبس ثياباً حسناً. ويتزّيا بزي التجار، ويتعمّم، ويمشي بين الناس، ويخفي بذلك نفسه. فلا يعرفه أحد بذلك الزي. فيطلبه الناس تبرّكاً بدعائه، فلا يجدونه، وهو بينهم بسوسة، ولا يعرفون أنه ذلك. فإذا انقضت أيام الموسم، رجع إلى زبته ومكانه. قال المالكي: كان ممن حفظ العلم وعني به، ثم تركه. توفي رحمه الله تعالى، سنة خمسين وثلاثمائة. ويقال اثنتين وخمسين. وقيل سنة سبع وأربعين» (5).

2) منكر ومغيّر بلسانه (المقاومة العلمية).

لم يأل العلماء جهداً في استعمال كل ممكن في مقاومة ومجابهة بني عبيد، وفي نقض دعوتهم الفاسدة. وقد اتخذت هذه المجابهة والمقاومة أشكالاً وأساليب: نذكر منها:

أ- إجماعهم وتصريحهم بكفر وضلال العبيديين.

القاضي عياض: «وقال أبو يوسف بن عبد الله الرعي في كتابه: أجمع علماء القيروان أبو محمد، وأبو الحسن القاسبي، وأبو القاسم ابن شبلون، وأبو علي بن خلدون، وأبو بكر الطبني، وأبو بكر بن عذرة: أن حال بني عبيد، حال المرتدين والزنادقة، بما أظهره من خلاف الشريعة، فلا يورثون بالإجماع. وحال الزنادقة بما أخفوه من التعطيل. فيقتلون بالزندقة» (6).

ب - مجاهرة العلماء بعقيدتهم، وتحملهم الأذى والسجن والقتل؛ لأجل ذلك، وقد امتلأت كتب التاريخ والتراجم بصفحات روت بطولاتهم وكيف أنهم لم يبالوا أنهم امتحنوا وقتلوا في ذات الله؛ من هؤلاء:



أبو عبد الله محمد بن عبد الله السدري[ت309هـ]: كان قد بايع على جهاد عبيد الله، وجاهره

بالعداوة فأرسل إليه عبيد الله الشيعي من يأتيه به ، ولما أوقف بين يديه قال له عبيد الله :

أنت الشاتم لنا الذاكر عتّا أنا أحدثنا في الإسلام الحوادث ، فقال له : نعم أنا القائل بذلك ،

فقال له : وما الذي رأيته متّا ؟ ، فأخبره بكلّ ما يعتقده في الدين والإسلام، وكلّ ما أحدث

فيهما ، فقال حينئذ عبيد الله لأوليائه : اضربوا عنقه ، فقتل رحمه الله سنة (309 هـ) (7).

أبو بكر بن الهذيل[ت279هـ]، وابن البرزون[ت279هـ] (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن

حسين الضبي):كانا صادحين بالحق، ذائين عن السنة، طلبهما عبيد الله، «فلما وصلا إليه،

وجداه على سرير ملكه جالسا، وعن يمينه أبو عبد الله الشيعي، وعن يساره أبو العباس أخوه،

فلما وقفا بين يديه، قال لهما أبو عبد الله، وأبو العباس: أتشهد أن هذا رسول الله، وأشار إلى

عبيد الله؛ فقالا جميعا: والله الذي لا إله إلا هو، لو جاءنا هذا والشمس عن يمينه، والقمر

عن يساره يقولان إنه رسول الله؛ ما قلنا انه رسول الله. فأمر عبيد الله بذبحهما حينئذ جميعا،

وأمر بربطهما إلى أذنان البغال» (8).

وقيل:«أن إبراهيم ابن البرزون لما جُرد للقتل قال له الحسن بن أبي خنيزر:أترجع عن

مذهبك؟ فقال له:أعن الإسلام تَسْتَيْبِي؟ فقتل» (9) وقيل: (أنه لما امتنع هو وصاحبه من ذلك

قال لهما: «أخرجنا إلى الناس، فقولوا أنه قد فعلنا ولا تفعلنا». فأبيا عليه ذلك، واعتلا بأنه

يقتدى بهما، وقالا: «عذاب الدنيا أيسر من عذاب الآخرة»، فأمر بضرهما بالسوط حتى ماتا،

وقيل ضرب أعناقهما، وطيف بهما مسحوبين على وجوههما، قد ربطا إلى بغل، فجرهما من

باب تونس إلى باب أبي الربيع، فصلبا هنالك) (10).

- أبو بكر محمد بن أحمد بن سهل المعروف بابن النابلسي[ت363هـ] العبد الصالح الزاهد،

كان يرى قتال بني عُبيد لما بدّلوا من الدين، (وكان قد هرب من الرُّملة إلى دمشق، فقبض عليه

متولّيها أبو محمود الكتّامي، وحبسه في رمضان، وجعله في قفص خشب، وأرسله إلى مصر،

فلما وصلها قالوا له: أنت الذي قلت: لو أنّ معي عشرة أسهم لرميت تسعة في المغاربة وواحدًا

في الروم، فقال: ما قلت هكذا، فظنّ أنّه يرجع عن قوله، فقال: كيف قلت؟ قال: قلت: إذا

كان معه عشرة وجب أن يرميكم بتسعة. ويرمي العاشر فيكم أيضًا، فإنكم قد غيرتم الملة،

وقتلتم الصالحين، وادعيتهم نور الإلهية، فأمر يهوديا بسلّخه فسُلخ؛ حتى إذا بلغ موضع

الصدر، رجّمهُ السّلاخ، فوكز السّكين في موضع القلب فقضى عليه. وحُثي جلده تبنًا، وصُلب.



وقيل: إنّه لما أُدخل مصر، قال له بعض الأشراف ممّن يعانده: الحمد لله على سلامتكم! فقال: الحمد لله على سلامة ديني وسلامة دُنْيَاك(11). قال الذهبي: «يا ما لقي العلماء والصُّلحاء بالمغرب من هذا الشَّيْعِيّ، قَبَّحَهُ اللهُ ولا رحمه» (12). قال ابن ناجي التنوخي: «جزى الله مشيخة القيروان خيراً، هذا يموت وهذا يُضرب، وهذا يُسجن، وهم صابرون لا يفرون، ولو فروا لكفرت العامة دفعة واحدة، رحمهم الله، ورضي عنهم.» (13). قال أبو الحسن القابسي: «إن الذين قتلهم عبيد الله وبنوه من العلماء والعباد أربعة آلاف رجل؛ ليردّوهم عن الترضي عن الصَّحابة» (14).

ج - الحرص على تعليم العامة دينهم، وتوعيتهم بتنظيم الدروس في المساجد والبيوت، والفتاوي والخطب، واستغلال المناسبات وكل ما من شأنه التحذير من بني عبيد والتنبيه إلى ضلالهم:

عندما منعهم العبيديون التدريس في المساجد فتحوا بيوتهم لتعليم النَّاس عقائد أهل السُّنَّة وفصائل الصَّحابة الأبرار، وقد تحوَّلت بيوت كلّ من أبي إسحاق السبائي وأحمد بن نصر الهواري وأحمد بن يزيد الدباغ، إلى ما يشبه المساجد، يؤمّها النَّاس لتعلّم الدِّين الصَّحيح، وكذا فعل أبو سعيد خلف بن عمر، وأبو الأزهر وابن شبلون وابن التبان، والقابسي، وغيرهم (15). وأبو بكر محمد بن اللباد[ت333هـ]: جده الأعلى أحد موالى موسى بن نصير، أخذ عن تلاميذ سحنون كيجي بن عمر، وسعيد الحداد وغيرهما، وبرع في الفقه إلى أن حاز رئاسة المالكية في إفريقية، ولذا امتحنه دعاة الشيعة ومنعوه من إلقاء دروسه بالمسجد الجامع، ثم سجن مع المجرمين في المهديّة، ثم أطلق وألزم الاعتكاف في بيته، فكان تلاميذه - ومنهم عبد الله بن أبي زيد - يقصدونه خفية، ويجعلون كتبهم في أوساطهم حتى تبتل بالعرق، وداوم على الإقراء، وقد استفاد منه جيل كامل حافظوا على سند الشيوخ المتوارث(16).

وقال القاضي عياض: «سئل أبو محمد القيرواني والكثير من علماء المالكية عن أكرهه بنو عبيد - يعني خلفاء مصر - على الدَّخُول في دعوتهم أو يقتل؟ قال يختار القتل، ولا يعذر أحد في هذا الأمر، كان أول دخولهم قبل أن يعرف أمرهم وأما بعد فقد وجب الفرار، فلا يعذر أحد بالخوف بعد إقامته، لأنَّ المقام في موضع يطلب من أهله تعطيل الشرائع لا يجوز، وإنما أقام من الفقهاء مع المباينة لهم، لئلا يخلو بالمسلمين عدوهم فيفتنهم عن دينهم» (17).

وحكي عن ابن التبان أنه رأى الناس يوماً مجتمعين في عاشوراء فبكى، فقليل له ما يبكيك، فقال: «والله ما أخشى عليهم من الذنوب لأن مولاهم كريم، وإنما أخشى أن يشكوا في كفر بني



عبيد فيدخلوا النار» (18). وسئل ابن عذرة عن خطباء بني عبيد. وقيل له: «إنهم يثنون عليهم. قال: أليس يقولون: اللهم صل على عبدك الحاكم، وورثه الأرض؟ قالوا: نعم. قال رأيتم لو أن خطيباً خطب فأثنى على الله تعالى ورسوله، فأحسن الثناء، ثم قال: أبو جهل في الجنة، أ يكون كافراً؟ قالوا: نعم. قال: فالحاكم أشرف من أبي جهل» (19). وسئل الداودي عن المسألة فقال: «خطيبهم الذي يخطب لهم، يدعو يوم الجمعة. كافر يقتل. ولا يستتاب، وتحرم عليه زوجته، ولا يرث ولا يورث ماله في المسلمين. وتعتق أمهات أولاده، ويكون مدبروه للمسلمين. يعتق أثلاثهم، بموته، لأنه لم يبق له مال. ويؤدى مكاتبوه للمسلمين ويعتقون بالأداء، ويرجعون بالعجز، وأحكامه كلها، أحكام الكفر. فإن تاب وأظهر الندم، ولم يكن أخذ دعوة القوم، قبلت توبته. ومن صلى وراءه خوفاً أعاد ظهراً أربعاً. ثم لا يقيم إذا أمكنه الخروج، ولا عذر له بكثرة عيال ولا غيره» (20).

د- عقد المناظرات والمساجلات المبينة لزيف دياتهم، ووضع التأليف الكاشفة عن ضلالهم: كان للفقهاء في ذلك مقامات مشهورة، وأثار محمودة؛ وذلك أن بني عبيد لما ملكوا القيروان أظهروا تبديل مذهب أهل البلد، وأجبروا الناس على مذهبهم بطريق المناظرة وإقامة الحجة؛ فهب العلماء عن دينهم مدافعين ولآل عبيد مناظرين، دونما ارتياح ولا ارتياب. وقد حمل لواء هذه المناظرات فقيهان فذآن، قال عنهما صاحب المعالم: «ولم يزل أهل القيروان في جهاد مع الفرق الضالة والفئة المارقة، ولم يزل الشيخ الأوحى أبو عثمان سعيد بن الحداد، وأبو محمد عبد الله بن اسحاق التبان، يناظران على مذهب أهل السنة ويرون ذلك من أعظم الجهاد حتى أحمدهم، وقلّ عددهم، وظهر حزب الحق وأعلى الله كلمته والحمد لله رب العالمين» (21).

وناب الشيخ أبو عثمان الحداد عن المسلمين في هذه المناظرات أحسن مناب؛ حتى مثله أهل القيروان بأحمد بن حنبل أيام المحنة، وقال رافضاً ومجيباً من أمره بالتقية طلباً لسلامته: «قد أريت على التسعين، ومالي في العيش من حاجة، وقتيل الخوارج خير قتيل، ولا بد لي من المناظرة والمناضلة عن الدين، وأن أبلغ في ذلك عذراً»، وصدق، وكان هو المعتمد في مناظرة الشيعة (22). ولقد قال له ابنه محمد يوماً: «اتق الله في نفسك، ولا تبالي في مناظرة الرجل (أبو عبيد الشيعي) فقال له: حسبي من له غضبت وعن دينه ذببت» (23).

من مناظراته ما رواه عنه ابن التبان، قال: «لما اجتمع أبو عثمان سعيد بن الحداد بأبي عبد الله الشيعي في مجلس المناظرة، قال له أبو عبد الله: أنتم تفضلون على الخمسة أصحاب



الكساء غيرهم؛ يعني بأصحاب الكساء محمد صلى الله عليه وسلم تسليماً، والحسن، والحسين، وعلياً، وفاطمة، وعُني بغيرهم: أبا بكر، فقال أبو عثمان: أيما أفضل؟ خمسة سادسهم جبريل؟ أو اثنان الله ثالثهما؟ فهت الشيعي» (24).

كما نشط العلماء في وضع التآليف التي تنقض معتقد العبيديين، سواء التآليف التي عالجت موضوع العقيدة، والفقه، والتشريع، وغيرها، أو التي تناولت مسألة الإمامة التي هي ركن من أركان دين الشيعة. فقد صنف أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله الزبيري المعروف بالقلانسي: كتاب (الإمامة) وضرب سبع مائة سوط وحبس في دار البحر أربعة أشهر، بسبب تأليفه (25). كما وضع أبو بكر بن اللباد كتاب (إثبات الحجة في إثبات العصمة للأنبياء)، ويبدو أنه تم تأليفه في سياق الرد على الإسماعيليين القائلين بعصمة الأئمة، وصنف أبو محمد عبد الله بن إسحاق المعروف بابن التبان كتاباً (في فضائل أهل البيت).

والظاهر أيضاً أن منع الشيعة لصلاة التراويح هو الذي دفع ابن أبي زيد القيرواني إلى وضع كتاب (فضل قيام رمضان). ونظراً للتباين الموجود بين الشيعة والمالكية أيضاً حول تحديد أوقات بعض العبادات فقد وضع بعض الفقهاء أيضاً مؤلفات في هذا الموضوع، ومنهم: عبد الله بن أبي القاسم بن مسرور التجيبي الذي صنف كتاب (المواقيت ومعرفة النجوم والأزمان)، وابن أبي زيد القيرواني الذي وضع هو الآخر كتاب (تفسير أوقات الصلوات). ولإبراز فضائل الإمام مالك ومذهبه وضع أبو العرب كتاب (فضائل مالك)، ومثله أبو بكر بن اللباد، كما وضع ابن أبي زيد القيرواني (كتاب الذب عن مذهب مالك) الذي دافع فيه عن المنحى التشريعي للمذهب المالكي، ونوّه فيه أيضاً ببعض مناقب الإمام مالك ومكانته لدى كبار العلماء في عصره (26).

هـ - مقاطعة كل ما يرمز إلى الحكومة العبيدية، ومقاطعة كل من يتعاطف مع آل عبيد.

قاطع الفقهاء كل وظائف الدولة العبيدية، وبخاصة مناصب القضاء إلا من تنازل عن مذهب السني، وحرضوا العامة على مقاطعة النظام المالي والاقتصادي العبيدي، كما فعل الداودي في كتاب (الأموال). وسبق قول الداودي في خطيب بني عبيد الذي يدعو لهم يوم الجمعة بأنه كافر يقتل، ولا يستتاب، وتحرم عليه زوجته، ولا يرث ولا يورث ماله في المسلمين...، ومن صلى وراءه، خوفاً، أعاد ظهراً أربعاً.

ولما دخل عبيد الله القيروان، وخطب أول جمعة وجبله بن حمود جالس عند المنبر فلما سمع كفرهم قام قائماً وكشف عن رأسه حتى رآه الناس، وخرج يمشي إلى آخر الجامع وهو يقول:



قطعوها قطعهم الله، فما حضرها أحد من أهل العلم بعد ذلك. وهو أول من نبّه على هذا (27).

وقاطع العلماء بعض خيار الفقهاء؛ لمجرد إظهار التساهل واللين مع العبيديين؛ كما حدث مع أبي إسحاق إبراهيم بن حسن بن يحيى المعافري التونسي الذي امتحن بسبب فتواه التي رأى فيها أن شيعة بني عبيد على قسمين أحدهما كافر مباح الدّم، والقسم الآخر وهم الذين يقولون بتفضيل علي بن أبي طالب على سائر الصّحابة، لا يلزمهم القتل ولا يبطل نكاحهم، وأنكر عليه جميع فقهاء إفريقية بالقيروان، ولم يرجع عن فتواه - في الظاهر - حتى أطلق الفقهاء الفتيا بسبب مقالته هذه بالتّضليل والتّبديع. وكما حدث لأبي القاسم خلف البرادي، وابن خيرون (كما سيأتي)؛ بل إنّ فقهاء المالكية صفحوا، وغضوا الطرف عمّن صدرت منهم هنأت علمية، وسقطات فقهية، لكونهم أبلوا بلاء كبيرا في مقاومة بني عبيد. فابن الحدّاد الذي تفقّه بسحنون ونزع إلى مخالفة مذهبه المالكي، كان يسمّي (المدوّنة) بالمدوّنة استخفافا؛ فرفضه أصحاب سحنون، وهجروه، وأغروا به القاضي ابن الطالب؛ فهمّ به، وبقي مهجور الباب، قليل الأصحاب، إلى أن ناظر أبا عبد الله الشيعي، وبرع في إبطال معتقده، وناب عن أهل السنة في مناظرتهم أحسن مناب (28).

(3) مُنْكَر، مغير بيده (المقاومة المسلحة).

لم يتبن فقهاء المالكية في مفتتح صراعهم مع العبيديين المواجهة المسلّحة؛ خوفا منهم من مآلاتها ومخاطرها؛ ولعدم العدة وتام الاستعداد؛ لذلك أنكر السواد الأعظم منهم على عديد العلماء الذين تشوّفوا إلى قتال بني عبيد وإعلان التمرد المسلّح عليهم. وبالرغم من ذلك فقد نشط الكثير من المالكية في توعية العامّة وتحريضهم على القتال، من هؤلاء: الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد السبائي المتعبّد [ت356هـ]: كان رحمه الله شديد العداوة لبني عبيد، مجاهرا لهم بالسب والتكفير، لا يزال سلاحه في بيته مستعدّا للقتال، ومجرّأ للناس عليهم؛ حتى نكرهم الكبير والصغير. وكان من علماء القيروان المقدم لدى أهلها، ينظرون إذا نزلت المعضلات إلى ما يفعل؟ فإن أغلق بابَه فعلوا مثله، وإن فتح بابَه، فتحو، وإن نطق وتكلم، تكلموا مثل كلامه؛ لتقدّمه عندهم، وقد كان رحمه الله يجتهد في جمع السلاح، فعملوا مثله (29).



الشيخ أبو سليمان ربيع بن سليمان بن عطاء الله القرشي القطان[ت333هـ]: الفقيه الأديب الشاعر، الناسك الزاهد، جعل على نفسه أن لا يشبع من طعام ولا نوم حتى يقطع الله دولة بني عبيد، وكان من أكبر الدعاة النشطين للخروج على بني عبيد (30).

الشيخ أبو يوسف جبلة بن حمود[ت299هـ]: لم يكن في وقته أكثر اجتهدا منه في مجاهدة عبيد الله وشيعته، كان لا يداري في ذلك أحد من الخلق.

أبو بكر المالكي: «ولما دخل عبيد الله الشيعي إفريقية، ونزل رقادة ترك جبلة بن حمود سكنى الرباط، ونزل القيروان، فخطب في ذلك فقال: كنا نحرس عدواً بيننا وبينه البحر فتركناه، وأقبلنا على حراسة هذا الذي حلّ بيننا، لأنه أشدّ علينا من الروم، فكان إذا أصبح وصلى الصبح خرج إلى طرف القيروان من ناحية رقادة، معه سيفه وترسه وفروسه وسلاحه، وجلس محاذياً لرقادة إلى غروب الشمس ثم يرجع إلى داره ويقول: أحرس عورات المسلمين من هؤلاء القوم، فإن رأيت منهم شيئاً حركت المسلمين عليهم» (31).

الشيخ أبو الفضل عباس بن عيسى الممسي[ت333هـ]: الفقيه الذي استشهد معه خمس وثمانون رجلاً، كلهم فاضل خير في حرب بني عبيد، المالكي عن بعضهم: «جاءه بنو أبي سلاس(من رؤساء الإبرس) في أيام أبي يزيد، فخرج إليهم من داره حافياً، فسمعتهم، يقول لهم في كلام جريئ بينهم: قد برج الخفاء، قتال هؤلاء القوم أفضل من قتال المشركين» (32).

لقد أثمر جهاد الفقهاء العلمي عبر سنوات الاضطهاد العبيدي في المغرب العربي تكوّن شعور عام بضرورة التخلص من هذا المذهب البدعي الدخيل، وتكلّل هذا الموقف بإجماع علماء القيروان على وجوب محاربة آل عبيد؛ لما شهروه من الكفر الصراح؛ لذلك لما أعلن أبو يزيد بن مخلد بن كيداد الخارجي الثورة على العبيديين لم يتأخروا في اللحاق بأبي يزيد بكل ما أوتوا من قوة بالرغم من معارضة بعض المالكية في الخروج معه، (وخرج الفقيه أبو إسحاق السبائي مع أبي يزيد، وقال هم أهل القبلة، وأولئك ليسوا أهل قبلة، وهم بنو عدو الله، فإن ظفرنا بهم لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد؛ لأنه خارجي...وقال: أي والله نجد في قتل المبدل للدين) (33)؛ وأوشكوا من القضاء على العبيديين الذين حوصروا في مدينة المهديّة؛ إلا أن أبا يزيد هذا لما رأى هزيمة الفاطميين وشيكة الوقوع غدر، وأمرهم أن يكشفوا ظهور القبروانيين عند اللقاء بالغد، وفعلاً وقعت الهزيمة عليهم، واستشهد من كبار أهل العلم كأبي الفضل الممسي وربيعة القطان. وبالرغم من أنّ هذه الهزيمة أفجعت القبروانيين خاصة، والمسلمين عامة؛ إلا أن الأحداث التي أعقبتها، جعلت العبيديين يائسين من نجاح دعوتهم في البلاد،



واضطروا إلى نقل عاصمتهم من القيروان إلى مدينة المهديّة بعض الوقت، ثم إلى مصر مخلفين وراءهم عناءً وجبهةً أرهقتهم دهرًا.

ب- وأما الفقهاء غير المنكرين، فهم صنفان:

(1) متعاطف مداهن أو متلاين.

(2) موافق خائن بائع لدينه ووطنه بعرض من الدنيا قليل.

(1) متعاطف مداهن أو متلاين، ومنهم:

- أبو القاسم خلف ابن أبي القاسم الأسدي: المعروف بالبرادي. ويكنى أيضاً بأبي سعيد. من كبار أصحاب أبي محمد ابن أبي زيد، وأبي الحسن القابسي، وحفاظ المذهب المؤلفين فيه. له كتاب التهذيب في اختصار المدونة، وكتاب اختصار الواضحة وغيرها، ولم تحل له رئاسة بالقيروان، وكان مبغضاً عند أصحابه، لصحبة سلاطينها الذين تبرأوا منهم. فكان مرفوض القول لديهم، ثقیل المكان عليهم. ويقال إن فقهاء القيروان أفتوا برفض كتبه، وترك قراءتها لئلا يهينهم، وسهل بعضهم في اختصاره المدونة وحده، لشهرة مسائله. ويقال إن الذي مكّن تغييرهم عليه، أنه وجد بخطه في ذكر بعض بني عبيد بهذا البيت المشهور:

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البناء ... وإن وعدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

ويقال: بل سببه أنه ألف كتاباً في تصحيح نسب بني عبيد، فلفظته القيروان. ولم يستقر بها. فخرج إلى صقلية، وقصد أميرها. فحصلت له مكانة. وعندها ألف كتبه المذكورة. ولم تذكر وقت وفاته. رحمه الله (34).

ابن ناجي: «مع أن المطلوب سد هذا الباب حينئذ، ولو كان صحيحاً حتى تهرب العامة والخاصة من قريبهم، وسمعت شيخنا أبا الفضل البرزلي ينقل غير ما مرة أن البرادي لما ألف اختصاره للمدونة أتى به إلى الشيخ أبي محمد بن أبي زيد، فأمر بحرقه أو محوه؛ لما تقدّم من أحواله، فمشى أبو سعيد وعواده، وأتى به إليه وأنشده:

خذ العلوم ولا تعباً بناقلها واقصد بذلك وجه الخالق الباري

أصل الرواية كالأشجار مثمرة اجن الثمار واخل العود للنار

فتركه أبو محمد ولم يعرض له» (35).

- أبو إسحاق إبراهيم بن حسن التونسي [ت443هـ]: وكان جليلاً فاضلاً، إماماً صالحاً، منقبضاً متبتلاً وكان مدرّساً بالقيروان، مستشاراً فيها. مع بقية المشيخة. وقد امتحن مع فقهاء القيروان، محنة عظيمة في سنة سبع وثلاثين وأربعمائة. وذلك أنه استفتى في الذين يقولون



بتفضيل علي بن أبي طالب على سائر الصحابة، فأفق بأنهم لا يلزمهم الكفر، ولا تبطل نكاحاتهم. وشاعت فتواه فأنكرها فقهاء إفريقية بالقيروان، وغيرها. وكانوا من التشدد على هذه الفئة المارقة. وكل من يتعلق بهم، حيث كانوا. والعامّة أشد من ذلك. لاسيما بظهورهم عليهم، وبغضهم فهم، وأرسلوا إلى أبي إسحاق، في معاودة النظر، وأن يرجع، فأبى إباءً شديداً. فخالف الجميع وقد استحسن المخالفين جوابه. ونهضوا ليفتنوا به الناس، وسرّبه من في قلبه مرض، واحتجّ به. فضله الفقهاء، وتبرّءوا منه. حتى أحضره السلطان مع جماعة من الفقهاء الذين حكموا بأن يقر بالتوبة على المنبر، بمشهد جميع الناس.

وإنما أنكر عليه الفقهاء كلامه؛ لأنّه في غير وقته، ولم يراع حال الأمة المفتونة بدعوة بني عبيد الشيعة، وكان الأولى به السكوت؛ قال القاضي عياض: «لا امتراء عند منصف أن الحق ما قاله أبو إسحاق. ولا امتراء أن مخالفته أولاً لرأي أصحابه في حسم الباب، لمصلحة العامة واللجاج خطأ. وأن رأي الجماعة، كان أسدّ للحال. وأولى بعائدة الخير، وفتواه جري على العلم وطريق الحكم. ومع هذا فما نقصه هذا عند أهل التحقيق. ولا غصّ من منصبه عند أهل التوفيق» (36).

أبو جعفر محمد بن محمد بن خيرون [ت301هـ]: المعافري الأندلسي، ذكّر أنه كان عابداً فقيهاً. قال الحافظ الخشني: «وأبو جعفر بن خيرون كان له طلب وعناية ورحلة، وأدخل بعض كتب داود القيروان، بلغني أنه كان ألف لعبيد الله كتاب (نسب الشيعة وأخبارهم)، وكان مرشحا للقضاء، وكان محمد بن عمر المروزي فيما قيل لي بغض به، وهو الذي سعى به حتى قتل ابن خيرون» (37). قيل: «إنه لما ضربه ابن أبي خنزير مائة سوط، وعذّبه قيل له: هات الأموال التي جمعت، فقال: والله لو أن تحت قدمي جبّا مملوءاً بمال الدنيا كلّها ما أخرجت لكم منه درهما، واني قد عصيت الله تعالى فيكم فسَلَطكم علي، فاضربوا ما شئتم وعذّبوا كيف شئتم هذا ما كان من أمر القاضي» (38). ابن ناجي: «وما ضرّه رحمه الله ما جرى كأنه سنّة كرى، ثم شاعت مدائحه كما ترى. إنما يصبر من فهم العواقب ودرى» (39).

(2) موافق وخائن.

لقد اعتمد العبيديون الشيعة على المال والمناصب والجاه والوسائل المادية في كسب بعض العلماء إلى دائرتهم، وقليل من هؤلاء من انقلب إلى آل عبيد شاكاً في عقيدته ودينه. وأوّل المنقلبين وكبيرهم، أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور القيرواني القاضي (40)، قال الذهبي: «كان مالكيّاً، ثم تحوّل إلى مذهب الشيعة لأجل الرياسة، ودخل بني عُبيد، وصنّف



لهم كتاب (ابتداء الدعوة)، وكتابًا في الفقه، وكُتِبَتْ كثيرة في أقوال القوم، وتصانيفه تدلّ على زُندَقَتِهِ وأنسِلاخه من الدين، وأنه منافق، نافقَ القوم، كما ورد أنّ مغربيًا جاء إليه فقال: قد عزم الخادم على الدّخول في الدّعوة، فقال: ما يحملك على ذلك؟ قال: الذي حمل سيّدنا. قال: يا ولدي، نحن أدخلنا في هواهم خلّواهم، فأنت لماذا تدخل؟ وكان ملازمًا للمعزّ أبي تميم، وولي القضاء له على مملكته، وقَدِمَ مصر معه من الغرب (41).

كما تشيّع محمد بن حيّان الذي صحب ابن سحنون وكان صاحب الصلاة بسوسة طلبا للمال، ومثله أبو بكر القمودي، وعلي بن منصور الصّقار، و أما ربيع بن سليمان بن سالم المعروف بابن الكحالة تشييع لغرامه بغلام شيعي ألفه، وتشيع قاسم بن خلّاد الواسطي طمعا في قضاء باجة ثم استغني عنه، ومثله جعفر بن أحمد بن وهب ولّاه قاضي العبيديين إسحاق بن أبي المنهال مظالم القيروان، وكذلك أحمد بن بحر ولّاه ابن أبي المنهال مظالم القيروان، ثم قضاء طرابلس، ثم القيروان بعد وفاة أبي إسحاق بن أبي المنهال، وأبو محمد بن شهرام من سوسة تشييع وتولّى كتابة محمد بن عمر المروذي، لكن زرارّة بن أحمد الذي كان يصحب المدنيين والعراقيين، ويتحلّى بالعلم والنظر، فقد ولّاه عبيد الله مدينته (المهديّة) وهو في المذهب الشيعي من الغالين (42).

ثالثا، الخاتمة:

بهذه العزيمة الصلبة، وبهذا الجهاد الكبير، واجه فقهاء المالكية دولة بني عبيد الرافضية، وهم صابرون محتسبون لا يألون إقداما ولا يعرفون انهزاما؛ إلى ان حلّ الفرج، وتطهّرت البلاد من بدعة طارئة على الأمة. ويمكن حصر نتائج البحث فيما يلي:

- صمود العلماء المالكية، ودورهم في الحفاظ على دين الأمة وأمنها القومي.
- قوّة المذهب السني المالكي، وتأصّله في نفوس المغاربة، أضعف الغزو العبيدي الشيعي وبَدَدَ آمال الغزاة.
- الهجوم الشيعي على البلاد الإسلامية كان أكبر فتنة اضطربت البلاد بها، وتلذّث بعنادها ومحتتها، وهو أخطر من الهجوم الصليبي، يشهد لذلك وقائع التاريخ، وكلام العلماء.
- المذهب الشيعي مذهب طارئ على المغرب العربي، ليس بأصيل.

قائمة المراجع

- حسن حُسنِي الصمادحي، الإمام المازري، دار الكتب الشرقية، تونس، (د.ط.).



- حفيظ كعوان، أثر فقهاء المالكية الاجتماعي والثقافي بإفريقية، رسالة ماجستير، تاريخ إسلامي (1430هـ- 2009م)، جامعة باتنة/الجزائر.
- الخشني قضاة قرطبة وعلماء إفريقية، تحقق: عزت العطار الحسني، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2 (1415هـ- 1994م).
- الخشني، طبقات علماء إفريقية، تحقق: محمد زينهم محمد عزب، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1 (1413هـ- 1993م).
- الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله وعلق عليه ابن ناجي التنوخي، تحقق: محمد الأحمد، محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، (د.ط.).
- الذهبي شمس الدين، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د.ط.).
- الذهبي شمس الدين، سير أعلام النبلاء، تحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3 (1405 هـ - 1985 م).
- السيوطي جلال الدين، تاريخ الخلفاء، تحقق: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة ، ط1 (1425هـ-2004م).
- ابن العماد الحنيلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب حققه: محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير دمشق - بيروت، ط1 (1406 هـ - 1986 م).
- القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقق: مجموعة من الأساتذة، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ط1 (د ت).
- ابن قيم الجوزية، طريق الهجرتين وباب السعادتين، دار السلفية، القاهرة ، ط2 (1394هـ).
- المالكي أبوبكر، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، تحقق: بشير الكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2 (1414هـ-1994م).
- مقديش محمود ، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقق: علي الزواري، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1 (1988م).

الهوامش

- 1- ابن قيم الجوزية، طريق الهجرتين وباب السعادتين، دار السلفية، القاهرة ، ط2 (1394هـ)، ص: 351.
- 2- المرجع السابق: ص: 351.
- 3 - القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقق: مجموعة من الأساتذة، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ط1 (د ت)، 5/303.
- 4 - بتصرف؛ المالكي أبوبكر، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية ، تحقق: بشير الكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط2 (1414هـ-1994م)، 2/45-46.
- 5 - ترتيب المدارك وتقريب المسالك: 6/50-51، وانظر رياض النفوس: 2/455.
- 6 - المرجع السابق: 7/277-278.



- 7 - رياض النفوس: 169/2-175
- 8 - المرجع نفسه: 49/2، معالم الإيمان: 63/2-64
- 9 - المرجع نفسه: 64/2
- 10 - المرجع السابق: 64/2
- 11- الذهبي شمس الدين، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، المكتبة التوفيقية، القاهرة. (د.ط) 224/26
- 12 - المرجع نفسه: 85/22
- 13 - الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان: ، أكمله وعلق عليه ابن ناجي التنوخي، تحقق: محمد الأحمدي، محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، (د.ط)، 292/2
- 14- السيوطي جلال الدين، تاريخ الخلفاء: تحقق: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة ، ط1 (1425هـ-2004م)، ص 11.
- 15 - انظر: ترتيب المدارك: 6/211
- 16 - حسن حُسنِي الصمادحي، الإمام المازري، دار الكتب الشرقية، تونس، (د.ط)، ص: 28.
- 17 - ترتيب المدارك وتقريب المسالك: 7/277-278
- 18 - المرجع نفسه: 6/252
- 19- المرجع السابق: 7/275
- 20 - المرجع نفسه: 7/275
- 21 - معالم الإيمان: 2/265
- 22 - انظر المرجع نفسه 2/298
- 23 - رياض النفوس: 64/2، الخشني، طبقات علماء إفريقية، تحقق: محمد زينهم محمد عزب، مكتبة مديولي، القاهرة، ط1 (1413هـ-1993م)، ص: 62
- 24 - معالم الإيمان: 2/298، وارجع إلى نفس المرجع، وكتاب رياض النفوس، وكتاب طبقات علماء إفريقية ؛ تجد الكثير من تلك المناظرات.
- 25 - انظر: ترتيب المدارك وتقريب المسالك: 6/257، تاريخ الإسلام: 26/112
- 26 - انظر حفيظ كعوان، أثر فقهاء المالكية الاجتماعي والثقافي بإفريقية، رسالة ماجستير، تاريخ إسلامي (1430هـ-2009م)، جامعة باتنة/الجزائر، ص: 137
- 27 - انظر: رياض النفوس: 2/43
- 28 - انظر معالم الإيمان: 2/295
- 29 - انظر: رياض النفوس: 2/471، معالم الإيمان: 3/64، الخشني، طبقات علماء إفريقية، تحقق: محمد زينهم محمد عزب، ط1 (1413هـ-1993م)، مكتبة مديولي، القاهرة، ص: 23
- 30 - انظر: ترتيب المدارك: 5/310، معالم الإيمان: 3/30
- 31 - انظر: رياض النفوس: 2/37-38، معالم الإيمان: 2/270، مقديش محمود ، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقق: علي الزواري، محمد محفوظ، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط1 (1988م)، 1/330



- 32 - انظر: رياض النفوس:2/297، معالم الإيمان:3/27.
- 33 - الذهبي شمس الدين، سير أعلام النبلاء: ، تحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ط3 (1405 هـ - 1985 م)، 155./15.
- 34 - ترتيب المدارك وتقريب المسالك:257/7-258.
- 35 - المرجع نفسه:257/7-258.
- 36 - انظر المرجع نفسه:8/58-62.
- 37- الخشني، طبقات علماء إفريقية:ص.44.
- 38 - نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار:2/332.
- 39 - معالم الإيمان:2/161.
- 40 - وهو غير أبي حنيفة النعمان الإمام صاحب المذهب الحنفي.
- 41 - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام:26/227، وانظر ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب حققه: محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير دمشق - بيروت، ط1(1406 هـ - 1986 م)، 4/338.
- 42- انظر: طبقات علماء إفريقية:78-80، الخشني قضاة قرطبة وعلماء إفريقية، تحقق: عزت العطار الحسني، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2(1415هـ-1994م)، ص295.